

LE MINOTAURE OU LA HALTE D'ORAN

ALBERT CAMUS

المنوتور^(١) أو وقفة وهران

أليير كامو كاتب فرنسي معروف من كتاب الجيل الحديث . نشأ في شمال أفريقيا واكتسب لنفسه مكاناً ممتازاً في الأدب حين نشر أسطورة « سيزيف » *Sisyphé* وهو كتاب يمرض فيه مذهبه في فلسفة الـ *Le malentendu* التي تمتاز بعمق التفكير وبسر التعبير . وبمـرحيته اللتين نالتا في باريس فوزاً عظيماً وهما *Caligula* وسوء التفاهم *Le malentendu* . وقد اختصنا بهذا الفصل الرائع في الأدب الوصفي الذي نشره ليرى أدباء الشباب مذهب الكتاب الفرنسيين في النظر إلى الأشياء وبصورها واتخاذها وسيلة إلى التفكير والاعتبار .

« إني أتصوره في بلاط الملك مينوس موزع اللب قلقتا يريد أن يعرف أى نوع من أنواع الوحوش المروعة يكون المنوتور : أشنيع إلى هذا الحد؟ أم لعله أن يكون خلابةً جذاباً ؟ »

فكر غير متحيز

لم تبق من صحار ولم تبق من جزر ، ومع ذلك فإن الحاجة تدعو إليهما . وإذا أردنا أن نفهم العالم فينبغي أحياناً أن نتحول عنه ، وإذا أردنا أن نتخذه الناس فعلياً أن نمسكهم نائنين عنا إلى حين . ولكن من لنا بالمكان الذي نجد

(١) المنوتور : وحش ، تذهب الأساطير اليونانية إلى أن نصفه آدمي والنصف الأعلى ثور ، كان يتفدى بلحم بني آدم : سجن في لايرنت جزيرة أفريطش . وقد استطاع ثيزيوس أحد أبطال اليونان أن يهتدي إليه في اللايرنت بفضل خيط أعطته إياه أريانا بنت الملك مينوس وقتله .

واللايرنت ، أو قصر التيه ، يتألف من مجموعة لا حصر لها من الغرف الصغيرة المظلمة المتداخلة ، يضل كل من دخلها ولا يمكنه الاهتداء فيها إلى الطريق .

فيه القوة والنفس الطويل اللذين يجمع الفكر فيهما شمله ، وتقدر الشجاعة فيهما نفسها . هناك المدن الكبرى ، ولكنها في حاجة إلى بعض الخصال . فالمدن التي تعرضها علينا أوربا ملأى بهمة ذكريات الماضي . وفي وسع اذن متدربة أن تدرك حفيف بعض الأجنحة وخفق بعض النفوس ، تحسّ فيها دوار القرون الغابرة والثورات والمجد ، وتذكر فيها أن الغرب صهر وسط الصياح والعجيج . وليس كل هذا خليقاً أن يهيئ لنا ما نحتاج إليه من صمت . كثيراً ما تكون باريس صحراء بالقياس إلى القلب . ولكن قد تمرّ بعض الأحيان تهبّ فيها من فوق مقبرة « الير لا شيز » ريح ثورية تملأ المدينة حياة بالأعلام وبألوان العظمة المنهزمة . وكذلك الأمر بالقياس إلى بعض المدن الأسبانية أو إلى فلورنسا أو إلى براغ . وسالزبورج مدينة هادئة ساكنة لولا موزار ، فمن حين إلى حين تندفع على السلالك الصيحة المدوية المتكبرة التي يدفعها دون جوان حين يلقى به في أعماق الجحيم . وقد تبدو قبيحاً أدنى إلى الهدوء ، وهي فتاة بين المدن ، وحجارتها حديثة السن لا تتجاوز ثلاثة قرون ، فلا يعرف شبابه الأسى والشجون . غير أن فيينا ملتقى للتاريخ يدوى من حولها اصطدام الدول . وربما يمر بها مساء تصطبغ فيه السماء بمحمة الدم . ويخيّل إلينا فيه أن تماثيل الخليل الحجرية المقامة على الرنج توشك أن تطير . في هذه اللحظة العابرة يتحدث كل شيء عن التاريخ وما يحفل به من بأس ، ونستطيع أن نشهد في وضوح انهيار الدولة العثمانية تحت انقضاء الجيوش البولندية . وهذا أيضاً ليس خليقاً أن يهيئ لنا ما نحتاج إليه من صمت .

ولا شك أن الذي يبحث عنه في هذه المدن الأوروبية هو تلك العزلة المأهولة ، أو على الأقل يبحث عنها أولئك الذين يعلمون ما يريدون . يستطيعون فيها أن يختاروا لأنفسهم الرفاق ، يستبقونهم حيناً ويتخلون عنهم حيناً . وما أكثر الذين صهرت الحياة نفوسهم وهم يقطعون الطريق بين غرفة فندقهم والاحجار القديمة في جزيرة سان لوى . (١) من الحق أن غيرهم أهلكتهم العزلة ، غير أنهم هلكوا لأنهم لم يكونوا على حظ كاف من الجلد وقوة الاحتمال .

(١) قلب باريس .

أما الأولون فقد حفزتهم هذه الوحدة إلى السمو وإلى تثبيت نفوسهم . كانوا في العزلة ولم يكونوا فيها . كانت ترافقهم على ضفاف نهر السين قرون من التاريخ والجمال تחדثهم عن شتى التقاليد وعن مختلف ألوان التقدم . على أن شبابهم كان يدفعهم إلى استدعاء مثل هذه المرافقة . ولكن أوقاتاً تلمّ وظروفاً تمرّ ، وإذا هذه المرافقة ثقيلة مرهقة . فقد صاح راستينياك أمام البقعة العفنة الضخمة التي كانت تتألف منها مدينة باريس : « ليصطرع اثنانا » . نعم كانا اثنين ، ومع ذلك كان العدد ضخماً .

والصحراء نفسها قد اتخذت معنى ؛ فقد حُمّلت شعراً وأصبحت من هذه الأماكن المقررة . والذي ينبغي القلب في بعض الأوقات ، هو على العكس من ذلك مكان لا شعر فيه . وقد أراد ديكارت أن يخلو إلى نفسه ليعين في التفكير والتأمل ، فاختر لذلك صحراءه ، مدينة كانت في ذلك الوقت من أكثر المدن تعاطياً للتجارة ، فوجد فيها عزلته . وكانت هذه العزلة مصدر وحي شعري لعله من أعظم شعرنا وأقواه ، نجد فيه هذه العبارة : « والمبدأ الأول ألاّ أقبّل شيئاً ما على أنه حق إلا أن أثبت ذلك بداهة » . وقد يكون المرء أقل طموحاً ولا يكون مع ذلك أقل ميلاً إلى الحنين . على أن أمستردام امتلأت منذ ثلاثة قرون بالمتاحف . وإذا أردنا أن نقرّ من الشعر لنلقى سكون الاحجار ، فعلينا أن نبحث عن صحار أخرى ، عن أماكن لا روح فيها ولا عون . ووهران إحدى هذه الأماكن .

ليس من مكان لم يشوّهه أهل وهران ببناء شنيع يشوّه أى منظر طبيعي . تتوقع مدينة تستقبل البحر وقد فتحت عليه ، يربطها ويفسّلها نسيم المساء ، ولكنك ، إذا استنيت الحى الأسباني ، تجد مدينة تستدير البحر وقد بُنيت على شكل حلزوني وهي تدور حول نفسها على غرار بعض القواقع . فوهران سور ضخّم مستدير أصفر اللون تظله سماء قاسية . وفي أول الأمر تضلّ في قصر التيه ، تبحث عن البحر كأنك تبحث عن خيط أريان . ولكنك تدور في شوارع ملتفة قائطة تحضر النفس ، وفي نهاية الأمر يلتهم المينوتور أهل وهران . وهذا الوحش هو السأم . ومنذ زمن بعيد لم يُعدّ أهل وهران يهيمون على وجوههم في غير هدى ، فقد قبلوا أن يُلتهموا .

ولن تستطيع معرفة الحجارة على وجه التحقيق إذا لم ترَ وهران . ففي هذه المدينة التي يطنى عليها الغبار ، يستأثر الحصى بالمكان الأول إلى حد أن التجار يضعونه في مقدمات حوانيتهم لتثبيت الأوراق ، بل لمجرد العرض ، وتؤلف منه كومات على جوانب الطرقات ، ولا بد أن يكون ذلك لمتعة العين ، فإنك تجد الكومة في مكانها وقد يمرّ عليها عام . والأشياء التي تستمد شاعريتها من النبات في أما كن أخرى تتخذ هنا وجه الحجارة . فالأشجار التي قد تصادفك في مدينة التجار والتي لا تزيد في مجموعها على العشر يكسوها الغبار . فهي نباتات متحجرة تتساقط من أغصانها رائحة مريرة تربة . وللمقبرة العربية في مدينة الجزائر هدوء ودعة اشتهرت بهما . أما في وهران فاذا نظرت فوق وادي رأس العين ، وجدت بقاعاً من الأرض تواجه البحر هنا ، هي حقول من الحصى الجبرى المتفتت ، لاصقة بالسماء الزرقاء ، تشعل الشمس فيها حرائق طامسة تعمى الأبصار . ووسط عظام الأرض هذه ترى بين آن وآخر زهرة من زهور الجيرانيوم تهب لمنظر الطبيعة حياتها ودمها الرخص . وقد جمعت المدينة كلها في إطار متحجر . وإذا نظرت إليها من المزارع ، فإن صخور الشواطئ التي تحاصرها من الشمك بحيث يخيّل إليك أن منظر الطبيعة خيالي غير واقعي لشدة معدنيته . وليس للإنسان فيه مكان لأنه قد أقصى عنه إقصاء . وكأن كل هذه الروعة المثقلة تأتي من عالم آخر .

وإذا جاز لنا أن نُعرّف الصحراء بأنها مكان لا روح فيه تسوده السماء دون سواها ، فإن هذه المدينة تفتظر إذن أنبياءها . فأنت إذا نظرت من فوق المنازل ومن حولها رأيت الطبيعة الإفريقية الجافة العنيفة قد زينتها مفاتها الواهجة ؛ فهي تدفع المنظر المنكر الذي غمرت به فتصدّعه ، وترسل صيحات عنيفة بين كل منزل ومن فوق كل سطح . وإذا صعّدنا في إحدى الطرقات الجانبية التي تتسلق جبل سانتا كروز ، فأول ما يبدو أمام أنظارنا هو مكعبات وهران المنتثرة الملونة . وإذا ما ارتفعنا قليلا ، فسرعان ما تظهر صخور الشواطئ الممزقة التي تحيط بالنجد وقد انحنت على البحر كأنها ضوار حمر . وإذا واصلنا التصعيد فهذه لطات عظيمة تتمزج فيها الشمس بالريح وتحيم على المدينة الشعثاء المتناثرة في غير نظام بين مختلف أرجاء بقعة صخرية فتأخذها من جميع اقطارها ، وتجري فيها الهواء وتخلط بعض أجزائها ببعض . وتجد هنا

تقابلا بين الفوضى الإنسانية الهائلة وبين استقرار البحر المستوى دائماً . وهذا يكفي حتى تنتشر في الطريق الجانبي لسفح الجبل رائحة للحياة مذهلة .

وفي الصحراء خصلة القسوة التي لا تعرف اللين . فسماء وهران المعدنية اللون ، وشوارعها وأشجارها التي تغشاها طبقة من الغبار ، كل هذا يساهم في إنشاء ذلك العالم الكثيف الجامد الذي لا يشغل فيه القلب والفكر عن نفسيهما ، ولا عن هدفهما الفذ وهو الإنسان . وإني أتحدث هنا عن خلوات صعبة ، وقد وضعت كتب عن فلورنسا وأثينا . وهاتان المدينتان والمدن الشبيهة بهما كانت عدداً كبيراً من رجال الفكر الأوربيين بحيث يجب أن تكون ذات مغزى . وهي تحتفظ بين طياتها بما يدعو إلى الحنين إليها والإكبار لها . وهي تسكن لوناً من ألوان الجوع تحسه الروح وتشبعه الذكري .

ولكن كيف الحنين إلى مدينة ليس فيها ما يغري الفكر ، والقبح نفسه فيها لا يمتاز بطابع خاص ، وماضيها ينتهي إلى لا شيء ؟ وفيم التعلق بما لا يستطيع أن يقدم لنا شيئاً ؟ وما الذي تحويه هذه الأماكن من إغراء : أهو الفراغ ؟ أم الملل ؟ أم السماء التي لا تعبأ بشيء ؟ بل لعلها العزلة ، ولعلها الخليقة أيضاً . فالخليقة حيث تروع تصبح وطناً مرّاً لأجيال من الناس . ووهران إحدى هذه الأوطان الكثيرة .

الشارع

كثيراً ما سمعت أهل وهران يشكون من مدينتهم قائلين : « ليس فيها أية بيئة ممتعة . » وكيف يمكن أن يكون ذلك ! فقد حاول بعض ذوى العقول الطيبة أن يؤقلموا في هذه الصحراء تقاليد عالم آخر وعاداته ، متبعين في ذلك المبدأ الذي يذهب إلى أنه لا يمكن خدمة الفن أو الفكر على خير الوجوه إلا إذا تضافرت على ذلك الجهود ^(١) . وكان من نتيجة هذا أن ما بقي في وهران من بيئات ممتعة إنما هي بيئات لاعى البوكر ، وهواة الملاكمة والكرة الخشبية ،

(١) نجد في وهران كليستا كرف بطل جوجول . فهو يتشاءم ثم يقول : « أشعر أن على أن أعنى ببعض الرفيع من الامر » .

والجمعيات الإقليمية المحلية . في هذه البيئات على الأقل ينأى أهل وهران عن التكلف ويرسلون أنفسهم على سجيتهما . وذلك واضح جلي . فهناك نوع من العظمة لا يستطيع أن يسمو ، فهو مجذب بطبعه . وعلى أولئك الذين يرغبون في استكشافه أن يتركوا البيئات وينزلوا إلى الشارع .

وشوارع وهران موهوبة للغبار والحصى والقيظ . وإذا سقط المطر كان طوفاناً وتحولت الأرض إلى بحر من الوحل . ولكن سواء أسطعت الشمس أم نزل المطر ، فإن الحوانيت تحتفظ بنفس المظهر العجيب الشاذ . وقد اصطلحت الألوان المختلفة من سوء الذوق في الغرب والشرق على أن تلتقي فيها . تجد بها أكداً من التحف ، فهذه كلاب سلوقية من المرمر ، وراقصات تصحبن بجعات ، وآلهة صيد من الجلايت الأخضر ، وهؤلاء لاعبو الكرة الخشبية ، وحاصدو الحقول . بها كل ما يستعمل للهدايا والمسابقات وأعياد الميلاد ، وكل ما يتخذ طريق الحواصل ورغوف المدافئ . بها كل هذه المجموعة المحزنة التي لا تفتأ تنشأ عبقرية تجارية مہرجة . على أن هذا الإيمعان في فساد الذوق يتخذ هنا مظهراً مضحكاً يجعلك تغتفر كل شيء . فهناك ما تحويه مقدمة أحد الحوانيت ، وقد عُرض مغموراً بالغبار : نماذج شنيعة من أرجل معدبة متألمة مصنوعة من الجبس ، ومجموعة من « رسوم رمبرانت مضحكة بمبلغ ١٥٠ فرنكا للرسم » وحافظات للأوراق النقدية مثلثة الألوان ، ورسم بالباستيل يرجع إلى القرن الثامن عشر ، وجحش ميكانيكي صغير مصنوع من قماش يشبه القטיפه ، وزجاجات من سائل خاص لتخليل الزيتون الأخضر ، وتمثال بفيض العذراء قد اتخذ من الخشب ، ذات ابتسامة فاحشة (وحتى لا يجهل أحد ما تمثله كتبت « الإدارة » تحت قدمه هذه العبارة « تمثال للعذراء من الخشب » .)

وتستطيع أيضاً أن تجد في وهران ما يأتي :
أولاً — مقاهي ذات مناضد تلمع من الدرّ ، مرشوقة بأقدام الذباب وأجنحتها . وصاحب المقهى دائم الابتسام على الرغم من أن حاتته خالية دائماً . وكان ثمن القدح الصغير من القهوة ستين سنتياً والكبير ثمانين .
ثانياً — حوانيت للتصوير الفتوغرافي لم تتقدم فيها الصناعة الفنية منذ اختراع الورق الحساس للتصوير . وهي تعرض مجموعة من الحيوانات العجيبة لا يمكن أن تصادفك في الطرق العامة ، منها الصورة التي تمثل بحاراً يسند

ذراعه على كونسول . ومنها الفتاة التي تؤهلها سنها للزواج ، وقد حُزم خصرها بشكل مضحك ، فوقفت أمام منظر من مناظر الغابة وقد تدلت ذراعاها إلى جانبيها . وتستطيع أن تقدر أن صور هؤلاء الأشخاص لم تتخذ من نماذج طبيعية ، إنما هي مبتكرات أنشئت لإنشاء .

ثالثاً — عدداً وافراً من دور تجهيز الموتى ، لا لأن الناس يموتون في وهران أكثر مما يموتون في غيرها من المدن ، بل لأن الناس يعنون فيها بالموت أكثر مما يعنى به في غيرها .

والسذاجة المميزة لهذا الشعب من التجار والأجانب المستقلين تبدو جليلة حتى في طرق الإعلان . فقد قرأت في البرنامج المطبوع لإحدى دور السينما في وهران إعلاناً عن فلم من الطبقة الثالثة ، فلاحظت فيه النعوت الآتية : « باهر » ، « نغم » ، « مدهش » ، « أخاذ » ، « مذهل » ، « هائل » . ثم إن الإدارة تنبئ الجمهور بما تحملت من تضحيات عظيمة في سبيل تقديم هذا « الإخراج » العجيب . وعلى الرغم من ذلك فإن ثمن التذاكر سيقى كما هو ولن يُرفع .

ومن الخطأ أن تظن أن في ذلك تصويراً لما يمتاز به أهل الجنوب من ميل إلى المبالغة ، بل إنما يبرهن واضعو هذا الإعلان على سداد حكمهم البسيكولوجي ، فإن عليهم أن يقهروا عدم الاكتراث والشعور السلبي المتأصل بالذين يستوليان على كل إنسان في هذا البلد حين يريد الاختيار بين حفتين تمثيليتين أو بين صناعيتين أو حتى بين امرأتين ، فلا يقرر إلا مجبراً . وفن الإعلان يعلم هذا حق العلم ، لذلك يتخذ لنفسه مقاييس أمريكية ، فهو هنا مدفوع بنفس الدوافع التي تحمله هنا إلى الغلو والإسراف .

وأخيراً فإن شوارع وهران تظهرنا على المتعطين الأساسيتين اللتين ينعم بهما شباب المدينة ، وهما مسح الأحذية ، ثم عرض هذه الأحذية في الشارع العام . وإذا أردت أن تكون لنفسك فكرة دقيقة عن أولى هاتين المتعطين ، فعليك أن تكل نعليك الساعة العاشرة من صباح يوم أحد إلى أحد مساحي الأحذية بشارع جاليني . هنالك تستطيع وأنت جالس على مقعد مرتفع أن تتذوق اللذة الخاصة التي ينعم بها حتى غير الخبير في هذه الأمور ، حين يشهد رجالاً مشغوفين بمهنتهم

كما يظهر ذلك في جلاء على مساحى الأحذية الوهرانيين . تراهم يدققون في كل نقطة ويمعنون في كل تفصيل من تفاصيل مهمتهم . فهناك فرش متعددة ، وثلاثة أنواع من الخرق ومزج ماهر بين الدهان والبترين . وقد يتبادر إلى ظنك أن العملية انتهت حين ترى البريق النهائى الذى ينشأ على أثر استعمال الفرشة الناعمة . ولكن نفس اليد الصنّاع تعيد نشر الدهان على الطبقة اللامعة ، ثم تفرّكها ، ثم تطفىء بريقها ، وتوصل الدهان إلى أعماق ثنايا الجلد ، فترتفع نفس الفرشة عن الحذاء وقد انبعث من أعماق الجلد هذا البريق المزدوج الأخير .

يبقى بعد ذلك عرض الأحذية . وإن أردت أن تقدّر هذه المتعة المستقاة من الطريق العام حق قدرها ، فعليك أن تشهد اجتماع الشباب في حفلات الرقص التنكرى التى تقام كل مساء في الشوارع الكبرى للمدينة . فالشباب الوهраниون من « أبناء الطبقة الراقية » الذين تترواح أسنانهم بين السادسة عشرة والعشرين يتخذون مثلهم العليا في الأناقة من السينما الأمريكية ، ويستعبدون هذا الزى التنكرى كل مساء . فشرعهم مجمّد لاصق برءوسهم يتجاوز طرف قبّعة من الجوخ مائلة على الأذن اليسرى ومنكسرة على العين اليمنى ، وقد حُصرت العنق في ياقة ترتفع حتى تبلغ أطراف الشعر ، وأحاط بها رباط الرقبة تجمععه عقدة ضئيلة جداً يسندها دبوس لا مفرّ منه . والسترة تتدلّى حتى تبلغ نصف الفخذ على سروال قصير فاتح اللون . وينزل الخصر فيكاد يبلغ الوركين ، وتسطع الأحذية التى تقوم على طبقات ثلاث من النعال . ترى هؤلاء الشباب يتبخثرون كل مساء على أرصفة الشوارع يقرعونها بما رُكّب في طباعهم من ثبات جاش وما رُكّب في أحذيتهم من أطراف الحديد . وهم يتكلفون في كل هذا تقليد مشية كلارك جابل وهيئته المطمئنة واستعلاءه الممتاز . من أجل ذلك يطلق ذوو البصائر الناقدة من أهل المدينة على هؤلاء الشباب في لطق غير معنّى بدقته لقب « الكلارك » .

ومهما يكن من شيء ، فإن الطرق العامة في وهران حافلة في أصيل كل يوم بجيش من الفتيان اليافعين الخفاف ، يتكلفون أقصى الجهد ليظهروا بمظهر شباب سيء السلوك . ولما كانت الفتيات الوهرانيات يشعرن أنهن منذ الأزل شبه مخطوبات لهؤلاء المجرمين ذوى القلوب الرقاق ، فهن يتكلفن أيضاً ما تتخذ أشهر الممثلات الأمريكيات من زينة وبهرج وأناقة . ونفس

البصائر الناقدة الماكرة تطلق عليهن لقباً مقابلاً وتسميهم « المارلين » .
 فإذا أقبل المساء وصعدت من النخيل المصفوف على جانبي الشوارع الكبيرة
 أصوات الطير مرتفعة نحو السماء ، التقت عشرات من « الكلارك » « المارلين »
 يقيس بعضهم بعضاً بأنظارهم في ترفع ، ويقوم بعضهم بعضاً ، وقد سعدوا
 بالحياة والظهور ، فأنسابوا أثناء ساعة لنشوة الوجود الكامل السعيد . هنالك
 يقول الحساد إننا نشهد اجتماعات اللجنة الأمريكية . لكنك تحسّ في هذه
 العبارة مرارة السنّ التي جاوزت الثلاثين فلم يعد لأصحابها في هذه الألعاب
 أرب ، فهم يفضّون من هذه المؤتمرات اليومية التي يعقدها الشباب والخيال .
 والواقع أنها برلمانات الطير التي يتحدث عنها الأدب الهندي . لكن هذه
 البرلمانات التي تنعقد في شوارع وهران لا تشقّ على العقول في البحث عن مشكلة
 الوجود ، ولا تجشمها السعى نحو الطريق المؤدى إلى الكمال ، ولا تستبقي من
 الأثر إلا حفيف أجنحة مرفهة ، وزهو أبهة مبهرجة ، ورشاقة مدللة منتصرة ،
 وبهاء غناء مرسل غير مكثرت يخفت مع الليل .

وكأنّي أسمع كليستاكوف يقول « أشعر أنّ عليّ أن أعني ببعض الرفيع
 من الأمر . » وهو للأسف قادر على ذلك . ولودفع إلى العمل كعمّر هذه
 الصحراء قبل بضع سنين . ولكن حسب القلب أن يكون له حظ من عمق حتى
 يرغب في أن يخلص لنفسه وسط هذه المدينة السهلة وما تشتمل عليه من موكب
 فتيات مزيّنات بالمساحيق ، لكنهن مع ذلك لا يستطعن إثارة العاطفة ويتخذن
 من التدلل ثوباً رقيقاً شفافاً لا يستر ما وراءه من المكر ، وسرعان ما يكشف
 أمرهن . نعم ! الاهتمام ببعض الرفيع من الأمر ! وإن أردت ذلك فحول عينيك
 وانظر : هذه سانتا كروز قد نقشت في الصخر نقشاً . وهذه الجبال
 الشاهقة ، والبحر المستوى ، والريج العاصفة ، والشمس المحرقة ، ورافعات
 الأثقال في الميناء ، والقُطر ، والمستودعات ، والميناء نفسه ، وهذه الدرجات
 الهائلة التي تتسلق صخرة المدينة ، وفي المدينة نفسها هذه الألعاب وهذا الملل ،
 هذه الضوضاء وهذه العزلة .

وقد لا يكون في ذلك سمو كافٍ . ولكن القيمة الكبرى لهذه الجزر
 المكتظة بالسكان أن القلب يتجرّد فيها من كل شيء . فليس إلى الصمت الآن

من سبيل إلا في هذه المدن التي تملؤها الضوضاء . وكتب ديكارت وهو في أمستردام إلى بلزاك القديم : « إنني أتره بين شعب ضخم مختلط بأنعم بحظ الحرية والراحة لا يقل عما تنعم به في طرقات حديقتك » .

الألعاب

يقم النادي الرياضي المركزي بشارع الفندق حفلة ملاكمة ، ويؤكد أن الهواة الحقيقيين سيقدرونها حق قدرها . وإذا أردنا أن نترجم هذا الإعلان إلى لغة واضحة فمعناه أن الملاكمين الذين سيتبارون ليسوا من الشهرة وذبوع الصيت في شيء ، وأن بعضهم يرقى إلى حلقة الملاكمة لأول مرة . فإذا لم تنتظر من المتخصصين فناً ممتازاً ، فلننتظر منهم على الأقل شجاعة وإقداماً . وقد أثارني أحد أهل وهران إذ وعدني وعداً قاطعاً « بأن سيراك في هذه المباراة دم » ، فرأيتني في هذا المساء بين الهواة الحقيقيين .

ويخيل إليّ أن هؤلاء الهواة لا يتطلبون أبداً لأنفسهم شيئاً من الرفاهية . فقد أقيمت حفلة ملاكمة في نهاية شيء يشبه أن يكون حظيرة للسيارات ، طلى بالجير وغطى بالصفائح الموج وأضى إضاءة غنيقة ، ووضعت مقاعد من تلك التي تطوى ، فرُصّت على شكل مربع حول الجبال . وهذه « مقاعد الشرف » ، ووضعت مقاعد أخرى في طول القاعة . وفي نهاية هذه القاعة يمتد مكان فسيح خال يُسمى « الممشى » ؛ وذلك لأنه لا يسوغ لواحد من المئات الحس الحاضرة أن يخرج منديله دون أن يحدث حدثاً . في هذا الصندوق المستطيل يتنفس نحو من ألف رجل وامرأتان أو ثلاث ، من أولئك اللاتي يهمن دائماً « استرعاء النظر » كما حدثني بذلك جاري . والنظارة جميعاً يتصببون عرقاً يوشك أن يغمرهم . وبينما هم ينتظرون معركة « الآمال » يدك فتوغراف ضخم صنوفاً من أغاني « تينو روسي » ، وهو اللحن الذي يتقدم القتل .

وصبر الهواة الحقيقيين لاحد له ؛ فقد أعلن أن الحفلة ستبدأ الساعة التاسعة مساءً ، وقد انتصفت الساعة العاشرة ولم تكن بدأت ، ولم ينكر ذلك أحد . والربيع حار ، وقد انتشرت فيه رائحة مثيرة تنبعث من هذه الإنسانية التي تجردت من سترتها . والمناقشة حادة يفصلها فرقعات منتظمة لصمامات القازوزة

والعويل النائح غير المنقطع الذى يصدر من المغنى الكورسيكى فى غير ملل أو كل . ويقحم ببعض القادمين من المتفرجين بين الجمهور ، وإذا بفانوس يعطر على حلقة الملاكمة ضوءاً يخطف الأبصار ، إيداناً بيدى النضال بين « الآمال » . والآمال أى المبتدئون الذين يناضلون فى سبيل المتعة دون سواها ، يجتهدون دائماً فى أن يبرهنوا على ذلك بتضحية أنفسهم فى لهف ، غير عابئين بأية قاعدة من قواعد الفن . وهؤلاء المبتدئون لا يتجاوز نضالهم مطلقاً ثلاث جولات . وبطل الليلة فى هذا المضمار هو الفتى كيداويون الذى يجول أثناء النهار بأوراق اليانصيب يبيعها على شرفات المقاهى . وهذا خصمه قد دُفع إلى خارج الحلقة فى مبدأ الجولة الثانية على أثر ضربة أصابته من يد انهالت عليه بسرعة عجيبة . وأخذ جمهور النظارة يتحمس قليلاً ، ولكنه مازال تحمساً مجاملاً . تحس هذا الجمهور غارقاً فى لذة عميقة ، يستنشق الرائحة المقدسة المنبعثة من الدهان الذى يدهن به المتلاكان ، ويشهد فى لهف تتابع هذه الطقوس البطيئة والقرايين المختلة النظام . ويزيد هذا المنظر صدقاً تلك الرسوم التى ترسمها على الحائط الظلال المسكخة . وهذه مقدمات مقررة لدين وحشى . أما الساعة الراهية فتأتى بعد ذلك .

وهذا مكبر الصوت يعلن : عمار « الوهرانى الصلب الذى لم يقهر » ضد بيريز « الملاكم الجزائرى الشهير » . وقد يسىء من لم يكن من أهل الفن تأويل الصياح الصاخب الذى يلقي تقديم الملاكين فى حلقة الملاكمة ، فيتصور فضلاً عظيماً يفيض فيه الملاكان نزاعاً شخصياً يعرفه الجمهور . والواقع أنه نزاع سيفضانه ، ولكنه النزاع الذى يفرق فى غلظة وشراسة بين مدينتى الجزائر وهران منذ مائة عام . ولو قد مضت على هذا النزاع بضعة من القرون لجرت كلتا المدينتين الإفريقيتين على صاحبتهما من الشر والهول مثل ما كان بين بيزا وفلورنسا فى أزمان أعظم حظاً من السعادة والهناء . ويزيد الخصومة عنفاً أنها فى أغلب الظن لا ترجع إلى سبب . وإذ تهبأت لهما كل الأسباب التى تدعوها إلى تبادل المودة ، فهما على العكس من ذلك تتبادلان البغض بنفس هذا القدر . فالوهرانيون يتهمون الجزائريين « بالتحذق » . والجزائريون يذهبون إلى أن الوهرانيين « غلاظ جفاة لا حظ لهم من ترف » . وهذا سبب أشد إقذاً مما يبدو فى ظاهر الأمر ، لأنه يتصل بالمعانى المجردة لا بالحقائق الواقعة . وإذ حيل بين المدينتين وبين

الحرب وما تقتضيه من حصار ، فهما تلتقيان وتتناضلان وتتسابان في ميادين الرياضة والإحصائيات والأعمال الكبار .

هي إذن صفحة من صفحات التاريخ تنشر على حلقة الملاكمة . والوهراني الصلب يشدّ أزره نحو ألف صوت من الأصوات الصاخبة ، وهو إذ يهاجم بيريز يدافع بذلك عن نهج معين في الحياة وعن نخر إقليمه بأسره . والحق يضطرنا إلى أن نقول إن عماراً لا يحسن توجيه النضال ؛ فإن في مرافقيه عيباً شكلياً ، إذ ينقصه طول الساعد ، في حين أن ذراع الملاك الجزائري ، على العكس ، تصل إلى الطول المطلوب ؛ فهو يصيب بطريقة مقنعة خصمه في حاجبه . وإقليم وهران تزدهيه الخيلاء وسط الضجيج الصاخب للجمهور أطلق عنانها . وعلى الرغم من التشجيع المتصل الصادر من الجمهور ومن جاري ، وعلى الرغم من الصيحات المشجعة له « اخترمه ! » ، « أعلِفْهُ التراب ! » ، والصيحات المنكرة على خصمه أنه يضرب في غير موضع للضرب ، وأن المحكم لم ير شيئاً والصيحات المتفائلة : « لقد امتص ! » ، « لم يبقَ به رمق ! » — على الرغم من كل ذلك فقد أعلن انتصار الجزائري بالأبناط وسط صياح استنكار لانهاية له . وجاري الذي لا يفتأ يتحدث عن الروح الرياضية فيصفق بشكل يتكلف الوضوح ، وفي نفس الوقت يهمس في أذني بصوت يكاد يضيع وسط هذا الصياح : « وكذلك لن يستطيع أن يقول « هناك » إن الوهرانيين غلاظ جفاة » .

على أن ألواناً من الصراع لم يبنء بها البرنامج قد ثارت في القاعة . فهذه كراسى ترفع ، والشرطة تشق لنفسها طريقاً ، والهياج يبلغ أشده . ولتهدة الخواطر ، والعمل على استعادة الهدوء ، أسرع « الإدارة » فكلفت الفونوغراف بصياح أغنية « سامبر وموز »^(١) وقد اتخذت القاعة أثناء لحظات مظهراً رائعاً . فهذه عناقيد متشابكة من المتشاجرين ومن المحكمين المتطوعين تترجح تحت قبضات رجال الشرطة ، والجمهور صاخب يطالب ببقية البرنامج يعبر عن رغباته عن طريق أصوات متوحشة أو صيحات تريد أن تشبه صياح الديك أو عويل القط . وكل هذا غارق في النهر الجارف للموسيقا العسكرية . على أنه يكفي الإعلان عن الصراع الهام حتى يعود الهدوء . ويتم ذلك لجأة

(١) إحدى الأغاني العسكرية الحماسية الشهيرة .

دون تدرّج ، كما يغادر الممثلون المسرح حين تنتهي القصة ، فتستفيض قبعات ،
وتصفّ مقاعد في سرعة وسهولة ، وتتخذ الأوجه في غير تردد المظهر العطوف
للمتفرج الطيب الذي أدّى ثمن تذكرته ليشهد حفلة عزف موسيقا للأُسر .
وفي الصراع الأخير يلتقي بطل فرنسي من أبطال البحرية بملاك وهراني .
أما هذه المرة فلاختلاف في طول الساعد في صالح الوهراني . على أن امتياز
أثناء الجولات الأولى لا يحرك الجمهور ؛ فهو يفتق من هياجه ، ويستعيد
هدوءه ، ولا يزال قصير التنفس . فهو يصفر ، ولكن في غير حماسة عدائية
وتقسم القاعة إلى فريقين كما تقضى بذلك القواعد التقليدية . ولكن انحياز
كل متفرج إلى أحد الخصمين يشوبه عدم الاكتراث الذي يلي بذل الجهد
الكبير . فإذا ما قاوم الفرنسي ، أو إذا ما نسي الوهراني أنه لا يصح الهجوم
بالرأس ، انتهالت على هامة الملاك موجة من الصفيح فختها ، ولكن لا تلبث
أن ترفها زوبعة من التصفيق . ولا بد من الوصول إلى الجولة السابعة حتى
تطفو الرياضة على سطح الماء ، في ذات الوقت الذي يأخذ فيه الهواة الحقيقيون
يطفون من أعماق إعيائهم . لقد ألقى الفرنسي على الأرض ، ورغب حينئذ في
أن يكسبه نفسه أبناطاً ، فانها على خصمه . قال حاري : « هانحن أولاً ، قد
وصلنا ، سنشهد الآن صراع الثيران . » ففعلاً كان صراع ثيران . فالملاك كان
يتصبان عرقاً تحت الضوء الضعيف ، وقد أخذاً بيد أن الهجوم ويضربان مغمضين
العينين ، ويدفعان بالأكتاف والركب ، ويتبادلان الدم ، ويستنشقان في حدة .
وفي نفس اللحظة وقف جمهور المتفرجين ، وأخذ يقطع جهود البطلين كما يقطع
الشعر ؛ فهو الذي يتلقى الضربات ويردّها ، ويسمع دوى ذلك في ألف صوت
كلها أصم لاهث . وهؤلاء المتفرجون الذين اختاروا بطلهم في غير اكتراث
يلتزمون اختيارهم في تعنت وولع شديدين . ولا تمرّ عشر ثوانٍ حتى يكرر
جاري صيحة تخرق أذني المني : « هيا يا أزرق الياقة ! هيا للبحرية ! » على حين
يصيح متفرج أماننا للوهراني بالإسبانية : « تقدم أيها الرجل ! » والرجل
والياقة الزرقاء يتقدمان ، وتتقدم معهما في هذا المعبد المبني من الجير والصفيح
والأسمنت قاعة بأسرها تهب نفسها كاملة لآلهة منخفضة الجبين . وكل ضربة
تدقّ صمّاً على الصدور اللامعة تدوى في شكل تموجات هائلة على جسم الشعب
نفسه الذي يبذل مع الملاكين آخر جهد من جهوده .

وما دام الجو قد تهيأ على هذا النحو ، فإن المباراة التي تنتهى إلى عدم فوز أحد الخصمين تقع موقعاً سيئاً فى نفوس النظارة ؛ فإنها تؤذى فى الجمهور حساسية مانوية . فهناك الخير والشر ، والمتنصر والمنهزم . وإذا لم تكن خطأ فلا بد أن تكون صائباً . ونتيجة هذا المنطق الدقيق الذى لا يتسرب إليه الخطأ تتقدم بها فى الحال أصوات صادرة من ألقى رثة عنيفة ، وتتهم القضاة بالارتشاء . غير أن ذا الياقة الزرقاء سعى إلى خصمه يقبله على الحلقة ويشرب من عرقه الأخوى . وهذا كفيلاً بأن تنقلب مشاعر القاعة فتنتطلق مصفقة . وجارى محق بلا شك فيما قال ، فليسوا جفاة ولا غلاظاً .

والجمهور الذى يتفرق فى الخارج تحت سماء يغمرها السكون ، وتملؤها النجوم قد شارك فى أشد المعارك إضناءً ، وهو صامت يتسرب خلسة دون أن يقوى على التأويل والمناقشة . هناك الخير والشر . وهذا الدين لا هوادة فيه . لم تعد جماعة المؤمنين به إلا حشداً من الظلال السوداء والبيضاء التي تختفى فى ظلمات الليل . فالقوة والعنف إلهان منفردان ، وهما لا يمنحان الذكري شيئاً ، على حين يوزعان معجزاتهما فى الزمن الحاضر ملء اليدين . وهما قد فُصِّلا على قد هذا الشعب الذى لا ماضى له والذى يقيم شعائره الدينية حول حلقات الملائكة . وهى طقوس تشق أحياناً ولكنها تبسط كل شيء . الخير والشر ، المتنصر والمنهزم . أمانى مدينة كورينثوس ، فقد قام معبدان متجاوران : معبد العُنف ، ومعبد الضرورة .

المباني والآثار

هناك أسباب عدة يرجع بعضها إلى الاقتصاد وبعضها الآخر إلى علوم ما بعد الطبيعة ، تدفعنا إلى القول إن الطراز الوهرانى (إن كان هناك طراز وهرانى) يبدو فى قوة ووضوح فى البناء الغريب الذى يدعى « متزل المستغل » . والمباني والآثار كثيرة فى وهران . فالمدينة لها نصيبها الضخم من تماثيل القواد الحرييين والوزراء ورجال الخير المحليين . تلقاها فى ميادين صغيرة مغبرة أسلمت أمرها للمطر والشمس ، واستحالت هى أيضاً إلى جوار الحجارة والسأم ، ولكنها تمثل تأثيراً خارجياً . فى بلاد البربر هذه السعيدة تعتبر دلائل للمدينة باعثة على الأسف .

أما وهران فعلى العكس من ذلك أقامت لنفسها هياكلها الخاصة . فقد رغب الوهرانيون في أن يبنوا وسط الحى التجارى بناء يضم مختلف الهياكل الزراعية التى لا حصر لها والتى تعتبر مورد الحياة لهذا البلد ، فككروا في أن يقيموا بالمل والجير صورة مقنعة تبين خصالهم ، وبنوا « منزل المستغل » . وإذا اعتمدنا على هذا البناء لإصدار حكمنا ، تبيننا أن هذه الخصال ثلاث : الجرأة فى الذوق ، والجنوح إلى العنف ، والحدق فى الجمع بين الاتجاهات المختلفة للتاريخ . فقد شارك كل من مصر وبيزنطة وميونخ فى إقامة هذا البناء الرقيق الذى يشبه قطعة من الحلوى تمثل كأساً مقلوبة . وقد كسى السقف بأحجار متنوعة الألوان غنية التأثير . وهذه الأحجار الحادة اللون من الإقناع بحيث لا تتيح لك ملاحظة شيء لأول وهلة . على أنك إذا اقتربت منها ، وقد استرعى انتباهك ، تبين أن لها مغزى : فهذا مستغل رشيق له رباط عنق على شكل فراشة ، وتغطى رأسه قبة بيضاء من الفل ، يتلقى عبارات الإجلال التى يتقدم بها موكب من الرقيق مرتدين رداء قديم الطراز . وقد أقيم البناء ذو النقوش الملونة على مفترق للطرق ، تذهب وتجيء فيه عربات الترام الضئيلة ، التى تغرى قدارتها بزيارة المدينة .

ومن جهة أخرى فإن وهران غفور جداً بأسديها اللذين يقومون فى ميدان السلاح . ومنذ سنة ١٨٨٨ يتصدران جانبي السلم فى دار البلدية . وكان صانعهما يدعى قائن . والأسدان قصيرا القامة ولهما روعة وجلال . ويقال إنه إذا كان الليل ، هبطا من قاعدتهما أحدهما إثر صاحبه فطوفا حول الميدان المظلم ، ثم بالا طويلاً تحت أشجار الجميز الضخمة المتربة . وهذه بالطبع أحداث يعيرها الوهرانيون أذاناً صاغية ، ولكنها غير معقولة .

وعلى كثرة البحث لم أعثر من أمر قائن هذا بشيء . غير أنه كان مشهوراً بأنه مثال حيوانات حاذق . على أنى كثيراً ما أفكر فيه ؛ فهو قد سلك إلى وهران منحدرأ خاصاً من منحدرات العقل . فهذا مثال ذو اسم رنان ترك هنا أثراً غير ذى خطر . ومع ذلك فإن مئات الألوف من الرجال أنسوا تلك الوحوش الحليمة التى وضعها أمام دار البلدية المزهوة بنفسها . وهذه إحدى وسائل النجاح فى ميدان الفن . ولا شك أن هذين الأسدين إن دلا على شيء فهما يدلان على شيء آخر غير النبوغ ، شأن آلاف من الآثار الأخرى . وقد

استطاع بعض الفنانين أن يخرجوا « طوف الليل » و « القديس فرانسوا يلتقي الوسم » و « دافيد » و « تمجيد الزهرة » . أما قارئ فقد أقام حيوانين مضحكين في الميدان العام لإحدى المدن التجارية من وراء البحار . على أن تمثال « داود » قد يهوى يوماً مع فلورنسا ، ويُنقذ الأسدان من الدمار . وأعود فأقول إنهما إن دلّا على شيء فليس على النبوغ .

ومالي أتعلم هذه الفكرة ، فإن ذلك الأثر يشتمل على تفاهة ومتانة . ليس للفكر فيه نصيب ، وللمادة النصيب الأكبر . تريد الرداءة أن تبقى بكل الوسائل ومنها البروز . يأبى الناس أن يكون لها حقوق أبدية ، وهي تعتصب لنفسها هذه الحقوق في كل يوم . أليست هي الأبد ؟ ومهما يكن من شيء ففي هذا الثبات ما يدعو إلى التأثر ، وهو يحمل بين طياته دوساً ثميناً وهو الدرس الذي تلقيه جميع مباني وهران وآثارها ، بل تلقيه وهران نفسها . ففي خلال ساعة من ساعات اليوم ، ومرة بين المرات ، يرغمك هذا الدرس على أن توجه عنايتك إلى ما لا أهمية له . ويستفيد الفكر من هذا الرجوع إلى نفسه ، فهو رياضة له . وما دام في حاجة إلى أن يقضى بعض الوقت متواضعاً ، فيخيل إلى أن هذه فرصة خير من غيرها تمكنه من النزول إلى مستوى البلاهة . وكل ما من شأنه الفناء يريد أن يبقى . فلنقل إذن إن كل شيء يريد البقاء . فليس للأعمال الإنسانية مغزى آخر . وإذا نظرنا إلى أسدى قارئ من هذه الناحية ، فإن لهما في البقاء حظاً لا يقل عن حظ آثار « أنكور » . وهذا يغري الإنسان بالتواضع .

وهناك مبان وهرانية أخرى ، أو على الأقل ينبغي أن نطلق عليها هذا الاسم ما دامت هي أيضاً تشهد للمدينة ، وقد تكون أقوى تعبيراً في شهادتها ، أعني بها الأعمال الكثيرة التي تستغرق من الساحل الآن نحو عشرة كيلومترات . ويظهر أنه يُراد تحويل خليج من أبهى الخلجان إلى ميناء ضخم . والواقع أنها فرصة جديدة يواجه فيها عزم الإنسان صلابة الصخر .

وقد ترى في لوحات لبعض أساتذة الفن القامتك موضوعاً نغماً يثير الإعجاب ويعود إليه هؤلاء الفنانون في إلحاح متصل ، وهو بناء برج بابل . ترى مناظر طبيعية غير مألوفة ، وصخوراً تتسلق السماء ، ومنحدرات وعرة يعج فيها العمال

والحيوان ، وتنتشر السلام والآلات الغربية والحبال والجرارات ، ولا يظهر الإنسان في هذا الميدان إلا ليعطيه الطابع الذي يتجاوز الطاقة الإنسانية . وهذا هو الذي تفكر فيه حين ترى الرصيف الذي يتخذ على الساحل شرق وهران .

فقد تعلقتم بمنحدرات ضخمة قضبان من الحديد ، وعربات دقاق ، ورافعات للأثقال ، وقطارات ضئيلة . في هذه الشمس المهلكة ترى قاطرات كأنها لعب الأطفال تدور حول صخور ضخمة بين الصغير والغبار والدخان . وينشط ليل نهار شعب من العمل على هيكल الجبل الداخن ، وقد تدلى طوال جبل واحد ملتصق بالصخر البحري عشرات من الرجال أسندوا بطونهم على مقابض ثاقبات أوتوماتيكية ، ويضطربون في الفضاء طوال النهار ، فيستخرجون قطعاً هائلة من الصخر تهوى بين الغبار والدوى . وعلى بعد منهم تنقلب عربات صغيرة من أعلى المنحدر قهوى الصخور نجاة في البحر ، طائرات متدحرجات كأنها سرب من الأطفال أطلقوا من المدرسة . وبين فترات منتظمة ، في قلب الليل أو في جوف النهار ، يسمع دوى يزلزل الجبل كله ويرفع البحر نفسه .

والإنسان وسط هذا كله يهاجم الصخر وجهاً لوجه . فإذا أتيح لنا أن ننسى لحظة الرق القاسى الذى يقوم على أساسه هذا العمل ، فلا سبيل إلى التخلص من الإعجاب الذى يستأثر بنا . هذه الأحجار التى تقطع من الجبل مسخرة لخدمة الإنسان ؛ فهى تتراكم تحت الموجات الأولى ، ثم تطفو شيئاً فشيئاً ، وأخيراً تنتظم على شكل رصيف لا يلبث أن يغطى بالآلات والرجال الذين يتقدمون في عرض البحر يوماً بعد يوم . ولا تفتأ آلات ضخمة من الفولاذ تشبه الأفلاك تقضم بطن الصخور البحرية ، دائرة حول نفسها ، ثم مفرغة في الماء شحنتها الحجرية . وكلما هبطت جهة الساحل تقدّم الشاطئ نحو البحر تقدماً لا سبيل إلى دفعه .

ولا ريب في أن إبادة الصخر غير ممكنة . إنما الممكن نقله من مكان إلى مكان . وهو على كل حال سيبقى أكثر من الرجال الذين يستخدمونه . ولكنه في الوقت الحاضر يدعم إرادتهم في العمل . ولا شك أن هذا نفسه غير مجدٍ على أن نقل الأشياء من أماكنها هو عمل الإنسان . فعليه أن يختار بين أن يعمل هذا ، أو لا يعمل شيئاً . ويبدو أن الوهرانيين قد اختاروا لأنفسهم مصيرهم . فامام

هذا الخليج الساكن المتقن ، ولسنوات مقبلة عديدة ، سيكدسون أكواماً من الحصى طوال الشاطئ . وبعد مائة عام ، أى غدا ، ينبغي استئناف ذلك كله . أما الآن فهذه الأكداس من الصخور تشهد للرجال الذين يجولون وسطها وقد علا وجههم قناع من التراب والعرق . فبأنى وهران الحقيقية وآثارها إنما هي أحجارها .

مجر أسباه

يذكرني الوهرانيون بصديق فلوير الذى ألقى وهو يحضر نظرة اخيرة على هذه الأرض التى لا تستعاض وصاح : أغلقوا النافذة ، فقد بلغ المنظر من الروعة أقصاه لقد أغلقوا النافذة وأقاموا حول أنفسهم سوراً ، ورسدوا المنظر من حولهم بالعزائم والرقى . غير أن لبواتشان توفى ، واستمرت بعده الأيام تتصل بالأيام . وكذلك الحال من وراء الأسوار الصفر التى تحيط بوهران . تمضى الأرض والبحر فى جوارهما غير مكترئين . وقد أثار العالم فى الإنسان باستمراره فتنة متناقضة ؛ فهو يبعث فيه اليأس ويحيى فيه الابتهاج . لا يقول العالم للإنسان إلا شيئاً واحداً فيثير فيه الشوق ، ولكن لا يلبث أن يرده إلى الملل . وهو الفائز آخر الأمر لا للاحاه فى الإصرار ، وهو المصيب دائماً . وعلى أبواب وهران نفسها تأخذ الطبيعة فى رفع صوتها . فمن ناحية كانا ستيل تمتد أرض بور بعيدة الأرجاء تغطيها آجام ينبعث منها عرف ذكى . والشمس والهواء لا يتحدثان هنا إلا عن العزلة . وفوق وهران تجد جبل سانتا كروز والنجد وعدداً لا يحصى من مجارى السيل العميقة التى ترقى إليه . وهناك طرق ، كانت مطروقة فيما مضى ، تتعلق بجوانب التلال المشرفة على البحر . فإذا كان شهر يناير اكتسى بعضها بالزهر الأبيض والذهبي فأصبحت طرقات بديدة طرزت بالصفرة والبياض . وقد قيل كل شئ عن جبل سانتا كروز . ولو أن لى أن أصفه ، لأغفلت ذكر المواكب المقدسة التى تصعد فى التل القاسى فى الأعياد الكبرى ، ولذكرت ألوانا أخرى من الحج ، وهى ، زيارات فردية منعزلة تتخذ طريقها فى الصخر الأحمر ، وترتفع فوق الخليج الساكن فتقضى فى هذه الأماكن الجرداء ساعة مضيئة رائعة الكمال .

على أن لوهران صحاريها الرملية أيضاً . وهي شواطئ قفر على بعد نحو عشرين كيلو متراً من المدينة . وتلقاك صحار أخرى غير هذه قبل الوصول إلى المدينة على مقربة من أبوابها ، ولكنها ليست مهجورة إلا في الشتاء وفي الربيع . وهي حينئذ أنجاد مواجهة للبحر يغطيها زهر الأسفوديل . وتكثر فيها الفيللات الصغيرة العادية المبعثرة وسط الأزهار . ويزار البحر شيئاً أسفل النجد ، غير أن الشمس ، والرياح الخفيفة ، وبياض الأزهار ، وزرقة السماء التي تكون أخذت في الصفاء ، كل هذا يؤذن بمقدم الصيف ، فيرى الإنسان في خياله الشباب الذهبي الذي يغمر الشاطئ حينئذ ، والساعات الطوال التي تقضى على الرمل ، والعذوبة المفاجئة التي تحل في المساء . وفي كل عام ترى على هذه الشواطئ فوجاً جديداً من الفتيات كأهن زهرات جديدة . وقد يلتقي في روعك أنهن لا يعيشن إلا فصلاً واحداً . وإنما تخلفهن من قابل زهرات جديدة لم تكن في العام السابق إلا بنيت صلاب الأجسام كأهن براعم الزهر . وفي الحادية عشرة من الصباح تنساب كل هذه الأجسام الفتية من النجد ، وتنهمر على الرمل كأنها موجة مختلفة الألوان .

فاذا مضيت في سيرك غير مبعد عن هذا المكان الذي يضطرب فيه مائتا ألف رجل كأنهم في دائرة مفرغة ، وجدت مناظر طبيعية عذراء ، وكنباناً جرداً عراضاً لا أثر فيها للإنسان ما عدا كوخاً متهدماً . وبين حين وحين تجد راعياً أعرايياً يدفع إلى قم التلال البقع الحمراء والصفراء التي يتألف منها قطيعه من الماعز . على هذه السواحل الوهرانية يبدو كل صباح من أيام الصيف كأنه أول صباح في العالم . ويبدو كل أصيل كأنه آخر أصيل فيه ، كأنه الاحتفال الرسمي بنهاية العالم ، يُنبئ بهذه النهاية عند غروب الشمس ضوء أخير يقيم كل الألوان : فالبحر مسرف في زرقة ، والطريق اتخذت لون الدم المتجمد ، والشاطئ أصفر ، وكل شيء يختفي مع الشمس الخضراء . وما هي إلا ساعة حتى تسيل التلال بضوء القمر . وهي حينئذ ليال مسرفة في الروعة ، تمطر وابلا من النجم ، وتتخللها زوابع في بعض الأحيان ، فيجري البرق متصفحا التلال ، ويشيع على السماء لوناً شاحباً ، ويفيض على الرمال وفي الأعين ضوءاً يرتقالي اللون . على أن هذا الشعور لا يمكن المشاركة فيه . فلا بد أن تحسه بنفسك . وكل هذه العزلة وهذه العظمة تكسب تلك الأماكن مظهراً

لا بنسى . وفي مبدأ الفجر الدافئ حين تمر الموجات الأولى التي ما تزال سوداء مرة ترى كأنها جديداً ينفذ من ماء الليل الصفيق . إنى لأذكر هذه المتع فلا آسى عليها ، إنما أعترف أنها كانت حلوة عذبة . والآن وقد انقضت سنوات عدة لا تزال ذكرياتها باقية في ناحية من نواحي هذا القلب الذي يصعب عليه مع ذلك الوفاء والاحتفاظ بالذكري . وإن عدت اليوم إلى تلك الكشبان الجرداء فأنا أعلم أن السماء ذاتها ستضئ في إلقاء ما تحمل من رياح ونجوم .
هذه أرض البراءة .

غير أن البراءة تعوزها الرمال والأحجار . وقد نسى الإنسان كيف يعيش . هذا على الأقل ما يبدو عليه وقد ازوى في هذه المدينة العجيبة التي استقر بها الملك . على أن هذا التقابل هو الذي يكسب وهران قيمتها . فهي عاصمة الملك ، تحاصرها البراءة والجمال . والجيش الذي يحاصرها له من الجند بقدر ما له من الأحجار . ومع ذلك فقد تمرّ بك في المدينة ساعات يشد فيها الميل إلى الاستسلام للعدو ! فما أشد هذه الرغبة في الانسجام مع الأحجار ، في الانسجام مع ذلك العالم المتوقد الجامد الذي يتحدى التاريخ واضطراباته ! وهذه الرغبة بالطبع لا غناء فيها . ولكن في كل إنسان غريزة عميقة ليست غريزة الهدم ولا هي غريزة الإنشاء ، إنما هي الرغبة في ألا يشبه شيئاً (١) وقد تسمع أحياناً هذه الدعوة وأنت تسير في شوارع وهران المترية وفي ظل جدرانها الساخنة . ويخيل إليك حيناً أن المستجيبين لهذه الدعوة لن يخسروا شيئاً ؛ فهي ظلمات أوريديس ، وهي نوم إيزيس . وهذه هي الصحارى التي يرتد الفكر فيها إلى نفسه . وهذه يد المساء الرطبة قد وضعت على القلب المضطرب . وعلى جبل الزيتون هذا الحاجة إلى اليقظة ؛ فإن الفكر يدرك الرسل الناعمين ويستصوب نومهم . أكانوا مخطئين حقاً ؟ ومع ذلك فقد نزل عليهم الوحي .

(١) وأنا أتمحدث هنا عن رغبة معينة لأنى أعتقد أنها من النوع الذي يجب أن يكون الإنسان قد تلقاه . فيستطيع بعد ذلك أن يحسن التقدير في ما يساويه العمل وما لا يساويه .

ولنذكر كاكياموني وهو في الصحراء . أقام بها دهرًا طويلًا جالسًا القرفصاء ساكن الحركة وقد اتجه نظره نحو السماء . وكان الآلهة أنفسهم يغبطونه على هذه الحكمة وعلى هذا المصير الذي يشبه مصير الحجارة . وقد اتخذت الطير من يديه المبسوطتين الجامدتين عشًا لها . ولكنها ذات يوم غادرت هذا المكات وطارت مستجيبة لنداء أرض نائية . وهذا الرجل الذي قتل في نفسه كل رغبة وكل إرادة ، ومحا كل غر وكل ألم ، أخذ يبكي . وهكذا قد ينبت بعض الزهر في الصخر نفسه .

نعم لنستجب للحجر حين تدعو إلى ذلك الضرورة ! فهذا السر وهذا الابتهاج اللذان تتطلبهما في الأوجه الإنسانية ، يستطيع هو أيضًا أن يمنحنا إياهما . لا شك أن ذلك لا يمكن أن يدوم . ولكن ما الذي يمكن أن يدوم ؟ فإن سر الوجوه يستخفي هو أيضًا ، وها نحن أولاء تندفع من جديد في حلقة الشهوات . وإذا لم يكن في وسع الحجر أن يرضينا أكثر من قلب الإنسان ، فإن في وسعه على الأقل أن يرضينا بقدر ما يرضينا قلب الإنسان .

« ألا نكون شيئًا ! » لقد أثارت هذه الصيحة شعاعًا كاملاً آفاقًا من السنين . وقد تخلل صداها ثنايا الأجيال والبحار حتى وصل إلى هنا ، إلى أقدم بحار العالم لموت . وهو لا يزال يرتطم في صوت أصم على صخور وهران السمكة . وكل إنسان في هذا البلد يستجيب له دون أن يدري . ولا ريب أن كل ذلك عديم الجدوى . فلا سبيل إلى إدراك العدم ، كما لا سبيل إلى إدراك المطلق . ولكن مادامنا نتلقى من الأبد هذا الداء الذي يحمله إلينا ورد الطبيعة وألم الإنسان على أنه نعمة ، فلنستجب لهذا الداء إلى النوم الذي تحمله الأرض أحيانًا . فليس هو أقل صوابًا من ذاك .

وقد يكون هذا خيط أريان الذي يهدي إلى سواء السبيل في تلك المدينة الصاخبة اليقظة في نومها . تتعلم فيها مزايا بعض السأم ، وكلها مزايا مؤقتة . وإذا أردت أن تتق هذا السأم فعليك أن تقول للمينوتور : « نعم » . وهذه حكمة قديمة خبسة . وإذا أشرفت من فوق الصخور على البحر الهادئ المطمئن ، ووقفت في توازن معتدل على مسافة متساوية بين الرأسين الضخمين الغاطسين في الماء الصافي عن عيين وعن يسار ، ففي خلال اللهم المتقطع الصادر من زورق خفر السواحل الذي يزحف في عرض البحر ويغمره ضوء ساطع ، تستطيع أن تسمع في وضوح

النساء الخافت للقوى الوضاء الخارقة للطبيعة . وهذا وداع المينوتور .
لقد انتصف النهار ، واليوم نفسه في الميزان . وإذا فرغ المسافر من أداء
الطقوس تلقى ثمن إنقاذه ، وهو هذا الحجر الصغير الذي يلتقطه على الصخرة
يابساً ناعماً كأنه زهر الأسفوديل . وليس العالم بالقياس إلى الملم بهذه الأسرار
بأنقل حلاً من هذا الحجر . فهممة « أطلس » سهلة يسيرة ، ويكفي أن يختار لها
الساعة الملائمة حينئذ . وأنت على هذه الشواطئ تشعر أنك تستطيع أن تنقطع
للحرية ساعة أو شهراً أو سنة . فهي تستقبل كل شخص دون تمييز ودون
النظر إليه ، تستقبل الراهب والموظف والغازي . وكنت أتوقع في بعض الأيام
أن ألقى في شوارع وهران ديكارت أو سيزار بورجيا . لم يتح لي ذلك .
وقد يكون غيري أسعد حظاً مني . وفيما مضى كان القيام بعمل جليل أو تحقيق
 مهمة كبيرة أو التفكير العميق ، يقتضى عزلة الصحراء أو الدير . هنالك كان
الفكر يقظاً حريصاً . وهل من مكان يلائم يقظة الفكر وحرصه خير من عزلة
مدينة كبيرة قد استقرت استقراراً أبدياً في الجمال الذي لا يفكر فيه ؟
وهذا هو الحجر الصغير الناعم مثل زهر الأسفوديل ، وهو في مبدأ كل
شيء . فالزهر والبكاء (إن حرص الإنسان عليه) والرحيل والتزاع ، كل ذلك
يرجأ إلى غد . وفي وسط النهار حين تفتح السماء ينابيع الضوء في الفضاء العظيم
الرنان ، تبدو جميع رؤس الساحل كأنها اسطول صغير يوشك أن يقلع . وهذه
المراكب المثقلة بالحجارة والضوء ترجف فوق قواعدها كأنها تتأهب للسير إلى
جزر تغمرها الشمس . أين منى أصباح وهران ! ومن أعلى النجد يغوص الطير
في خواب ضخمة يزد فيها الهواء . والشاطئ كله متأهب للرحيل تجري فيه
شعيرة المخاطرة . غداً ، قد نساها معاً

أبير لامر

نقلها عن الفرنسية توفيق شحاته